بين يدي السورة :

سورة مَكِّيَّة بالاتفاق ، وهي أول سورة نزلت على النبي ﷺ وتشتمل السورة على وجوب الإيمان بالله جلَّ وعلا الذي خلق ما في الوجود ، وخلق الإنسان من علق ، وعلمه بالقلم ، وعلمه ما لم يعلم . ومع ذلك فإن الكافر يستغنى بما آتاه الله من نعم عن عبادة المُنْعِم سبحانه مع أنه سوف يرجع إليه ويحاسبه على عمله ، وختمت السورة بتهديد ذلك الشقي الكافر بأشد العقاب إن استمرَّ على ضلاله وطغيانه ، والنهي عن طاعة المخلوق الكافر العاصي في معصية الخالق المؤمن المهيمن .

سبب النزول :

يروي عن السيدة عائشة أنها قَالَتْ : " كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّه ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ قَالَ وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ قَالَ لِخَدِيجَةَ أَيْ خَدِيجَةُ مَا لِي لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ قَالَتْ خَدِيجَةُ كَلاَّ أَبْشِرْ فَوَاللَّه لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا فَوَاللَّه إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ وَيَكْتُبُ مِنْ الإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ قَالَ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا ذَكَرَ حَرْفًا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ قَالَ وَرَقَةُ نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ أُوذِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " [متفق عليه]

وروي في سبب نزول قوله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ..﴾ إلى آخر السورة عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ " لَوْ فَعَلَهُ لأَخَذَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ" [رواه البخاري]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

اللغويات :

﴿اقْرَأْ﴾ قَرَأَ الكِتَابَ قِرَاءَةً وَقُرْآناً تَتَبَّعَ كَلِمَاتِه نَظَراً وَنَطَقَ بِهَا ، والآيَةَ مِنَ القُرْآنِ نَطَقَ بِأَلْفَاظِهَا عَنْ نَظَرٍ أَوْ عَنْ حِفْظٍ ﴿خَلَقَ﴾ أَوْجَدَ مِنْ عَدَمٍ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ ، ابْتَكَرَ ، أَبْدَعَ ﴿عَلَقٍ﴾ العَلَقُ الدَّمُ الغليظ أو الجَامد ، والعَلَقة : طَوْرٌ مِنْ أَطْوَارِ الجَنِين ، وَهِيَ قِطْعَةُ الدَّمِ الَّتِي يَتَكَوَّن منها ﴿لَيَطْغَى﴾ طَغَى : تَجَبَّرَ وَأَسْرَفَ في

الظُّلْمِ ﴿اسْتَغْنَى﴾ كان في غِنَى عَنْ غَيْرِه ﴿الرُّجْعَى﴾ الرُّجُوع ﴿الْهُدَى﴾ الدَّلالةُ بلُطفٍ إلى ما يوصِّل إلى المطلوب ، والهُدَى الرَّشادُ، والهُدَى الطَّاعةُ ﴿بِالتَّقْوَى﴾ التَّقْوَى : الخَشْيَةُ والخوف ، وتَقوى الله : خَشْيَتُه وامْتِثَالُ أوامره واجْتِنَابُ نَوَاهِيه ﴿تَوَلَّى﴾ الشيءُ : أَدْبَر ، ويقال : تولَّى فلانٌ هاربًا وتَوَلَّى عَنْه : أَعْرَضَ وَتَرَكَه ﴿كَلاَّ﴾ حَرْف يُفيد الرَّدْع والزَّجْر والاسْتِنْكَار ﴿يَنْتَهِ﴾ انْتَهَى عَنْ الشَّيء كَفَّ عَنْه، والعَاصِي كَفَّ عَنْ العِصْيَان ﴿لَنَسْفَعَنْ﴾ سَفَعَ بعُضْوٍ منْ أَعْضَائِه سَفْعاً قَبَضَ عَلَيْه وَجَذَبَه بِشِدَّة ، سَفَعَ بِنَاصِيَةِ الفَرَس لِيَرْكَبَه ، والنَّار والشَّمْس وَجْهَهُ لَفَحَتْه لَفْحاً يَسِيراً فَغَيَّرَت لَوْنَ بَشْرَتِه وَسَوَّدَتْه ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ النَّاصِيَة : مُقَدَّمُ الرَّأْس ﴿نَادِيَهُ﴾ النادي مكان مُهَيَّأ لجلوس القوم فيه ، والغالبُ أن يتفقوا في صَناعة أو طَبَقَة ، ونادي الرجل : أهلُهُ وعَشِيرَتُه ﴿الزَّبَانِيَةَ﴾ مَلائِكَةُ التَّعْذِيب في جَهَنَّمَ لأَنَّهُمْ يَدْفَعونَ أَهْلَ النَّارِ إِلَيْها .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ اتْلُ ، يا محمد ، وتدبَّر ما يوحى إليك من ربك من آي القرآن الكريم بادئاً بذكره تعالى فهو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من العدم على غير مثال سابق ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ إن ربك الذي يوحي إليك هذا القرآن هو الذي خلق الإنسان من قطعة دم غليظ أحمر معلقة بجدار الرحم ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ استمر ، يا محمد ، في تلاوة وتدبُّر ما أُنزل إليك من ربك وهو يعينك ويفهمك فهو واسع العطاء والإحسان ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ إن ربك هو الذي علَّم الخَلْق القراءة في الصُحُف والكتابة بالقلم ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ إن ربك هو مصدر كل علم نافع عرفه الإنسان وبدونه لم يكن يعلم شيئاً عن نفسه وعن الكون حوله ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى﴾ إن الإنسان الذي خلقه الله تعالى وعلَّمه ما لم يكن يعلم ، إذا لم يطع ربه ، فإنه يستغني بنعم ربه عن عبادته ويظلم خلق الله ويسرف في الظلم ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ ألا يعلم هذا الإنسان الطاغي الذي طعم خير ربه ومنع شكره وظلم خلقه أنه سوف يموت ويبعث ويرجع إلى ربه ليحاسبه ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾ هل هناك أظلم من الذي لم يكتف بكفره بالله إنما يصد عن سبيله ويمنع غيره من إقامة الصلاة ، وهذه الآية

وإن كانت نزلت في أبي جهل فإنها عامة في كل طاغية يصد عن سبيل الله ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ أرأيت ، أيها الطاغي ، إن كان الذي تنهاه عن الصلاة على الهدى فكيف تنهاه؟ أو إن كان آمرًا غيره بالتقوى أتنهاه عن ذلك؟ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ألا يعلم هذا المكذِّب بدين الله المُعْرِض عن الحق أن الله تعالى يراه ويحصى عليه أعماله ؟! ﴿كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ إن لم يكف هذا الكافر عما يفعله لجذبناه من مقدمة رأسه وطرحناه في النار فهذه الرأس هي التي أمرت صاحبها بالكذب وأرشدته إلى الخطيئة ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ فلينفذ هذا الكافر ما هدد به من استدعاء أهله وعشيرته لإيذاء النبي وقد روي أن أبا جهل عندما نهى النبي ﷺ عن الصلاة ، نهره النبى ﷺ وزجره وأغلظ له القول فقال أبو جهل : أتهددني يا محمد وأنا أكثر هذا الوادي نادياً ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ إن نفَّذ تهديده وجمع أهله وعشيرته لإيذاء النبي ومنعه من الصلاة فسيرسل الله تعالى ملائكة العذاب فتأخذهم جميعاً كما جاء في الصحيح " لئن فعله لأخذته الملائكة" هذا غير عذاب الله لهم في الآخرة ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ وأنت أيها النبي لا تطع هذا الكافر ولا تخشى تهديده إنما أطع الله وتقرب إليه بالعبادة والصلاة فإن " أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ فأكثِروا الدُّعاءَ " [رواه مسلم]

فوائد وعظات :

* أرسل الله تعالى نبيّاً أُميّاً لأمة أُميَّة لا تكتب ولا تحسب ومع ذلك كان أول أمر له ولقومه أمراً بالقراءة باسم الله الذي خلق والذي علَّم بالقلم ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : "إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُبُ وَلا نَحْسُبُ الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ وَمَرَّةً ثَلاثِينَ " [متفق عليه] وفي هذا يقول الشيخ محمد عبده : إنه لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي ، بهذه الآيات الباهرات ، فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض ، وإلى تمزيق تلك الحجب التي حجبت عن أبصارهم نور العلم ، وإن

لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع ، فلا أرشدهم الله .

ومع هذا فإن البلاد العربية تعد من أكثر البلاد أُمِّيَّةً وجَهْلاً ، وتصل نسبة الأمية في مصر ، كما جاء في تقرير الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء ، إلى أكثر من ٢٦% أي نحو ١٧ مليون نسمة ، ويُقَدَّر عدد الأمُيِّين في الوطن العربي اليوم بحوالي ٧٠ إلى ١٠٠ مليون نسمة ، يُمثلون ما نسبته ٣٥ إلى ٤٥% من سكان المنطقة، وتبلغ نسبة الإناث من الأميين حوالي ٦٠ إلى ٨٠ % وقد أفاد تقرير الرصد العالمي للتعليم في سنة ٢٠١١ إلى أن عدد الأطفال غير الملتحقين بالتعليم في البلاد العربية يبلغ ٦،١٨٨ مليون طفل، كما أن ٧ إلى ٢٠% من الأطفال الملتحقين بالفعل بالتعليم يهربون منه خلال المرحلة الدراسية الأولى، بل وتبلغ النسبة في بعض الدول ٣٠ % .

هل هذا يصح في أمة طلب العلم فيها ليس فضيلة إنما فريضة ، يقول النبي ﷺ : " طلبُ العلمِ فَريضةٌ على كلِّ مسلمٍ " [صحيح الألباني] ويقول ﷺ : " مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ " [رواه أَبُو داود والترمذي] أهناك دعوة إلى العلم والتعلم أكثر من دعوة الإسلام اللهم لا، ومع ذلك فإن العرب يضرب بهم المثل في الجهل والتخلف والأمية !!

* قال ابن القيم في بيان فضل الكتابة بالقلم : تأملْ حالك وقد أمسكت بالقلم ، وهو جماد، ووضعته على القرطاس وهو جماد ، فتولَّد من بينهما أنواع الحكم، وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر ، وجوابات المسائل، فمن الذي أجرى فَلَكَ المعاني على قلبك، ورسمها في ذهنك ثم أجرى العبارات الدالة على لسانك ، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشاً عجيباً ، معناه أعجب من صورته، فتقضي به مآربك ، وتبلغ به حاجة في صدرك ، وترسله إلى الأقطار النائية

والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك، ويترجم عنك ، ويتكلم على لسانك، ويقوم مقام رسولك ، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله ، سوى من علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ؟

* كيف يطلب جبريل من النبيﷺ أن يقرأ ثلاث مرات وهو يعلم أنه لا يقرأ؟ وما معنى " ما أنا بقارئ " التي قالها النبي ﷺ ثلاثاً ؟ ولماذا كان جبريل يعاقب النبي بعد كل إجابة بضمه وعصره حتى يضيق نفسه ويكاد يختنق ؟

ونبدأ بالإجابة عن السؤال الثاني . "ما أنا بقارئ" الأولى قالها النبي ﷺ لنفي معرفته القراءة ، والثانية لنفي عدم معرفته أيّاً من ألوان العلوم التي يتعلمها الإنسان من المُعَلِّمين فلم يتلق العلم على يد بشر من قبل ، أما الثالثة فقالها مستفهماً ماذا يقرأ ؟ وكيف يقرأ ؟ ليبدي رغبته في التعلم فيقول أي شيء تريدوني أن أتعلمه ؟ وما السبيل لتعلمه؟

فيخبره جبريل أن الذي سيتولى تعليمه هو الرب الكريم الذي خلق الإنسان من علق وعلمه بالقلم ... قال ابن حجر العسقلاني : فإن قيل لم كرر ذلك ثلاثاً أجاب أبو شامة بأن يحمل قوله أولاً : " ما أنا بقارئ " على الامتناع وثانياً : على الأخبار بالنفي المحض . وثالثاً : على الاستفهام ويؤيده أن في رواية أبي الأسود في مغازيه عن عروة أنه قال : "كيف أقرأ ؟ " وفي رواية عبيد بن عمير عن بن إسحاق "ماذا اقرأ ؟ " وفي مرسل الزهري في دلائل البيهقي " كيف أقرأ ؟ " وكل ذلك يؤيد أنها استفهامية والله أعلم " (١)

أما عن إجابة السؤال الأول كيف يأمر جبريل النبي بالقراءة ثلاثة مع علمه بعدم معرفته بها ؟ وذلك ليبين للناس عدم معرفة النبي القراءة وعدم اطلاعه على الكتب السماوية السابقة ، هذا عن أمر جبريل الأول اقرأ ؟ والأمر الثاني لبيان أن ما يوحى إلي النبي مُنَزَّل كله من عند الله وليس علماً تعلمه من بشر ردّاً على ما سيقوله بعض الكفار بعد ذلك {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل:١٠٣] أما اقرأ الثالثة فمعناها

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري في شرح صحيح البخاري " ج ١ ص ٢٤ .

اتل وتدبَّر ما أقرأه عليك ؟ لذا كان جواب النبي عليه في المرة الثالثة ليس لنفي معرفته للقراءة ولا لنفي تحصيله علم من بشر إنما للاستفهام عن المطلوب قراءته وكيفية قراءته .

أما إجابة السؤال الثالث لماذا كان جبريل يضم النبي ويعصره ؟ فإن هذا لم يكن عقاباً له على جوابه إنما تنبيهاً لعقله وشحذاً لإدراكه بأن ما يسمعه ويحس به ليس حلماً رآه في منام ولا وهماً اختلقه خيال ، ولا سوسة من نزغ شيطان إنما هو حقيقة مدركة وإدراك حقيقي . وعت أذن النبي ما سمعت وحفظ قلبه ما نزل عليه ولكنه لم يعرف تفسير ما حدث وتبعات ما استُحفِظ من وحي لعدم معرفته بأمر الرسل والرسالات حتى فسَّره له ورقة وبشَّره بالنبوة .

من الإعجاز العلمي في السورة :

* ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ العلق لغةً الدم الجامد ويمثل المرحلة الثانية من مراحل تكون الجنين فبعد أن تصل النُّطْفة " البويضة المُخصَّبة " إلى الرَّحِم تصبح قطعة من الدم الجامد تتعلَّق بجدار الرحم، ومن هذه العلقة يخلق الله الجنين ولم يتوصل الإنسان إلى هذه الحقيقة العلمية إلا في القرن العشرين .

* ﴿كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لَنَسْفَعَ بالنَّاصِيَة * نَاصِيَة كَاذِبَة خَاطِئَة﴾ والناصية هي شعر مقدم الرأس، ووصف الناصية بأنها ﴿كَاذِبَة خَاطِئَة﴾ أي كاذبة في بيانها، متعمدة الخطأ في أفعالها، وفي ذلك إشارة إلي وجود الفص الجبهي من المخ تحت الناصية مباشرة، وهو مركز الوظائف العقليَّة العليَّا من مثل التقدير والتدبير، والاختيار بين البدائل، ووضع الخطط، واتخاذ القرارات، والتواؤم مع الواقع، وهذه الحقيقة لم تتوافر للعلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين. (١)

من لطائف النظم القرآني :

* أمر الله تعالى نبيه بالقراءة مرتين في مستهل السورة ، الأولي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وهو أمر بالقراءة باسم الله تعالى ، واقرأ الثانية ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ أي تدبَّر وتفكَّر وكلما تدبر الإنسان في آلائه ونعمه زاد عطاء الله الكريم له ، وتكرار

(١) د. زغلول النجار " من أسرار القرآن " جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠٤/١٠/١١

الفعل ﴿اقرأ﴾ لبيان أهمية القراءة والعلم ، وبعد قوله تعالى ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ قال : ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ليدل على أن تعليم الله الإنسان بالقلم من تمام كرمه تعالى على الإنسان ولولا أن علمه الله تعالى بالقلم ما تعلم .

* ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ لماذا قال باسم ربك ولم يقل باسم إلهك ؟ وذلك أن أهل مكة كانوا يؤمنون بالله رباً خلقهم وخلق السموات والأرض ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت : ٦١] ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ومع إيمانهم بالله رباً كانوا يتقربون بعبادة الأصنام إلى الله !! ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] أي: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة . فالله تعالى قال لنبيه اقرأ باسم ربك الذي تؤمن به خالقاً للسماوات والأرض وما بينهما ، والذي لم يدع أحد ، حتى الذين ادعوا الإلهية ، أنه خلق شيئاً في الكون إلا الله تعالى .

* ﴿أَرَأَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ ..﴾ استفهام للتشنيع والتعجيب والاستنكار من فعل الناهي، وكذلك ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَىٰ ٱلْهُدَىٰ﴾ .

* ﴿ فَلْيَدْعُ ﴾ أسلوب أمر للتعجيز .

* اتفاق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿خَلَقَ .. عَلَقٍ﴾ و ﴿الأَكْرَمُ.. بِالْقَلَمِ .. يَعْلَمْ﴾ و ﴿لَيَطْغَى .. اسْتَغْنَى .. الرُّجْعَى .. يَنْهَى .. صَلَّى .. الْهُدَى .. بِالتَّقْوَى .. وَتَوَلَّى .. يَرَى ..﴾ و ﴿نَادِيَهُ .. الزَّبَانِيَةَ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

بين يدي السورة :

السّورة مكّيَّة عند بعض المفسّرين، مَدَنيَّة عند الأكثرين ونُرجِّح أنها مَدَنيَّة لأن شهر رمضان الذي فيه ليلة القدر التي رَغَّب النبيُّ ﷺ المسلمين في قيامها لم يُفْرض صومه إلا في العام الثاني من الهجرة .

وقد تحدثت السورة عن فضل ليلة القدر فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم فيها ، وجعلها خير من ألف شهر ، وأنزل الملائكة فيها من أجل كل أمر خير وبركة قدَّره تعالى وقضاه ، وجعلها سلام وأمان من بدايتها إلى طلوع الفجر .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

اللغويات :

﴿الْقَدْرِ﴾ : المقْدارُ ، والقَدْرُ الحُرْمَةُ والوَقارُ ، لفلان قَدْرٌ عند فلان: أي منزلة وشرف، وليلةُ القَدْر : ليلة مباركة من شهر رمضان أُنزل فيها القرآن الكريم ﴿أَدْرَاكَ﴾ أَعْلَمَكَ وأخبرك ﴿الرُّوحُ﴾ الرُّوحُ : ما به حياة ، والرَّوْحُ الرَّحْمَةُ ، والرَّوْحُ السُّرُورُ والفَرَحُ ، الرَّوْحُ : جِبْرِيل عليه السلام .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ الله تعالى أنزل القرآن كله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثم بدأ تنزيله مُفَصَّلاً على سيدنا محمد ﷺ في غار حراء في ليلة القدر كذلك ، واستمر ينزل على النبي مفرَّقاً تثبيتاً لقلبه وعلاجاً لأحداث

تستدعي نزوله وبياناً للدين ومنهجه ثلاثة وعشرين عاماً ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ وأنت لم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علوّ قدرها لذا سأخبرك بفضلها ، ثم ذكر الله تعالى فضلها من ثلاثة أوجه ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾الوجه الأول في فضل ليلة القدر هو : أن العمل الصالح فيها خيرٌ من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ الوجه الثاني : نزول الملائكة وجبريل إلى الأرض في تلك الليلة بما يقضيه الله تعالى لعباده ويقدِّره من الخير والبركة ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ الوجه الثالث : أن ليلة القدر يَمُنُّ فيها الله تعالى على عباده بالأمن والسلام والخير ونزول الملائكة من بدايتها إلى طلوع الفجر .

فوائد وعظات :

* لقد أخفى الله تعالى تحديد وقت ليلة القدر ليقيم الحريص عليها كل ليالي رمضان كما أخفى رضاه في الطاعات حتى يُرَّغبَ فيها جميعاً ، وأخفى الإجابة في الدعاء للاجتهاد فيه دوماً ، وأخفى الاسم الأعظم لتعظيم أسمائه التسع والتسعين ودعائه بها ، وأخفى الصلاة الوسطى للحفاظ على الصلوات الخمس ، وأخفى قبول التوبة للمواظبة عليها ، وأخفى أجل الإنسان للاستعداد له في كل وقت .

* إذا كان الله تعالى قد أخفى ليلة القدر ليجتهد الإنسان في كل ليالي رمضان فَلِمَ قال النبي ﷺ " تَحَرَّوْا ليلةَ القَدْرِ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ " [متفق عليه] هذا الحديث لا يدعو لإهمال قيام الليالي العشرين الأولى إنما يدعو مَنْ قَصَّر فيها أن يجتهد في الليالي العشر الأخيرة فإن لم يستطع فليجتهد في الليالي الوتر منها " تَحَرَّوْا ليلةَ القَدْرِ فِي الوِتْرِ، من العشرِ الأواخرِ من رمضانَ " [رواه البخاري] أما من أراد أن يدرك ليلة القدر يقيناً ويُغْفَر له ما تقدم من ذنبه فعليه أن يقيم ليالي الشهر كله " من قام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا ، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبِه" [رواه مسلم]

* قال مالك بن أنس : " إنَّ رَسولَ اللَّه ﷺ أُريَ أعمارَ النَّاسِ قبلَهُ . أو ما شاءَ اللَّهُ من ذلكَ ، فَكَأنَّهُ تقاصرَ أعمارَ أمَّتِه أن لا يبلُغوا منَ العَملِ ، مثلَ الَّذي بلغَ غيرُهُم في طولِ العمرِ فأعطاهُ اللَّهُ ليلةَ القَدرِ خَيرٌ من ألفِ شَهْرٍ " [الموطأ]

من لطائف النظم القرآني :

* ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ في التعبير عن القرآن بضمير الغائب مع عدم تقدم ذكره تعظيم له أي تعظيم لما أنه يشعر بأنه لعلو شأنه كأنه حاضر عند كل أحد فهو في قولة المذكور وكذا في إسناد إنزاله إلى نون العظمة مرتين وتأكيد الجملة بإنَّ .

قال سفيان بن عيينة : إن كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿مَا أَدْرَاكَ﴾أعلم الله تعالى به نبيه ﷺ وما فيه من قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ لم يعلمه عز وجل به .

* الإطناب بذكر ليلة القدر ثلاث مرات، زيادة في الاعتناء بشأنها، وتفخيماً لأمرها.

* ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ استفهام بغرض التفخيم والتعظيم .

* توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿ٱلْقَدْرِ .. شَهْرٍ .. أَمْرٍ .. ٱلْفَجْرِ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

بين يدي السورة :

اخْتُلف في أن السورة مَكِّيَّة أو مَدَنِيَّة ، والراجح أنها مَدَنِيَّة فقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال لأُبَيٍّ بن كعب : " يا أُبي إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ} قال أُبيّ : وسمَّاني؟!. قال : " نعم" فبكى أُبيّ من الفَرَح " [متفق عليه]

وأبي بن كعب صحابي أنصاري من أهل المدينة ، كما أن السورة تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية في أسلوب تقريري يرجِّح أنها مَدَنِيَّة .

الحقيقة الأولى : هي أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة . والحقيقة الثانية: أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة. والحقيقة الثالثة: أن الدين في أصله واحد، وقواعده بسيطة واضحة، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة: ﴿وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ . والحقيقة الرابعة: أن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية. ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافاً بيناً .

وهذه الحقائق الأربع ذات قيمة في إدراك دور العقيدة الإسلامية ودور الرسالة الأخيرة في التصور الإيماني . (١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن " ج ٨ ص ٧٦ .

تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

اللغويات :

﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الذين لهم كتاب منزَّل: اليهود والنصارى ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ جَمْع مُشْرِك وهو من كفر بالله وعبَد غيرَه ، أو جعل له شريكًا في ألوهيَّته ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ ما انفكّ يفعل كذا :أي استمر يفعله ، مُنْصَرفين وتاركين تقول انفك الشيءُ عن الشيءِ إذا انفصل عنه ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ الحُجَّة الواضحة ﴿صُحُفًا﴾ جمع صَحِيفَة : ما يُكْتَب فيه من وَرَق ونحوه ، ويطلق على المكتوب فيها ، والمصحف: ما جُعِلَ جامعاً للصُّحُف المكتوبة ﴿مُطَهَّرَةً﴾ طَهَّرَ الشَّيءَ : بَرَّأَهُ ونزَّهَه من العيوب وغيرها ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مُسْتَقيمَة مُعْتَدلَة ﴿مُخْلِصِينَ﴾ أَخْلَصَ لله دينَهُ : ترك الرِّياءَ فيه ﴿حُنَفَاءَ﴾ رَجُلٌ حَنِيفٌ : مَائِلٌ عَنِ البَاطِلِ إِلَى الدِّينِ الحَقِّ ﴿الْبَرِيَّةِ﴾ : الْخَلْق ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة واستقرار وخلود .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ لم يكن الذين كفروا بالله من اليهود والنصارى، والمشركين تاركين ما هم عليه من الكفر والشرك حتى تأتيهم الحُجَّة القاطعة التي تبين لهم حقيقة ضلالهم ، ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ وكان محمد ﷺ هو الحجة الواضحة لكي يترك الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركين ضلالاتهم ويؤمنوا بالله وحده ويتبعوا

شرعه ولقد أوحى الله تعالى لرسول الله ﷺ أن يقرأ عليهم القرآن الكريم الذي حفظه ونزَّهه تعالى من التحريف بتثبيته في القلوب وتدوينه في الصُحُف ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ هذا القرآن المدون في الصحف اشتمل على سور وآيات وأحكام مستقيمة فيها الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وتزكية النفس وتعمير الأرض ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وبعد بعثة النبي ﷺ اختلف اليهود والنصارى وتفرقوا فمنهم من آمن به وصدَّقه، ومنهم من كفر به وكذَّبه رغم أنهم كانوا يَعِدُون باجتماع الكلمة ونبذ الخلافات ويتبعون رسول آخر الزمان ﴿النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧] ﴿وَمَا أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ وما كان لهم أن يختلفوا ويتفرَّقوا فما جاء به رسول الله هو الحق من ربهم الذي يأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده والاستقامة على شرعه والمحافظة إقامة الصلاة وأداء الزكاة وهذا هو الدين الحق الذي جاء به أنبياء الله ورسله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ إن الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركين بعد أن أقام الله الحجة عليهم ببعثته ﷺ ورسالته عقابهم نار جهنم خالدين فيها، أولئك هم أشد الخليقة شراً فقد عَرَفوا الحق وأنكروه ونُهُوا عن الضلال فاتبعوه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ إن الذين صَدَّقوا الله واتبعوا رسوله وعملوا الصالحات، أولئك هم خير الخَلْق ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ جزاؤهم عند ربهم يوم القيامة جنات إقامة واستقرار في منتهى الحسن، تجري من تحت قصورها الأنهار، خالدين فيها أبدًا، رضي الله عنهم فقبل أعمالهم الصالحة، ورضوا عنه بما أعدَّ لهم من أنواع الكرامات، ذلك الجزاء الحسن لمن خاف الله واجتنب معاصيه .

فوائد وعظات :

* ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ قال الواحدي هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً ؛ وقد اختلف المفسرون حول ﴿مِنْ﴾ أهي للبيان أم للتبعيض ؟ ولو كانت للبيان فإن المعنى

يكون إن الذين كفروا هم أهل الكتاب والمشركين كقوله تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠] أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان وعلَّلوا ذلك بأن "من" لو كانت للتبعيض فإن هذا يقتضي أن أهل الكتاب منهم كافر ومنهم ليس بكافر، وهذا حق، وأن المشركين منهم كافر ومنهم ليس بكافر، ومعلوم أن هذا ليس بحق لذا رجَّحوا أن تكون للبيان فجعلوا كل أهل الكتاب كفار كالمشركين . ومن قال إن "من" للتبعيض علَّلوا ذلك بأن من أهل الكتاب من لم يكفر بعد نبيه وكان على الاعتقاد الحق حتى توفاه الله تعالى وأيد إرادة التبعيض بما روي عن ابن عباس من أن المراد بأهل الكتاب اليهود الذين كانوا بأطراف المدينة من بني قريظة والنضير وبني قينقاع . وعلى هذا يتفق أصحاب الرأيين على أن أهل الكتاب قبل الإسلام لم يكونوا جميعهم كافرين والمشكلة في عطف المشركين عليهم ، ونرى أن حل هذه المشكلة يسير ؛ فكلمة مشركين معطوفة فقط على الكافرين من أهل الكتاب وليس كل أهل الكتاب وعلى هذا يكون المعنى أن الذين كفروا من أهل الكتاب وكذلك المشركون ، ويؤيد ذلك قراءة بعض القُرَّاء (والمشركون) بالرفع عطفاً على الذين كفروا . وقراءة ابن مسعود: {لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفكين} دون ذكر " الذين كفروا " وهذه قراءة على التفسير. وهي جائزة في معرض البيان لا في معرض التلاوة .

* ما كان الله تعالى ليترك الناس دون هداية فالله تعالى لم يخلق الإنسان عبثاً ولم يتركه سدى ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦] وهذه سُنَّة الله في خلقه أن يبيِّن للناس الحق على لسان رسله ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ فقبل الحساب يكون البلاغ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠] ولن يعذِّب الله الناس حتى يقيم عليهم الحُجَّة وهي أن يبعث إليهم الرُسُل مبشرين ومنذرين ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ {الإسراء:١٥} ولم يترك الله تعالى أمَّة إلا أرسل لها رسول يهديها سبل الرشاد ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦] ولقد ختم الله تعالى الرسالات بمحمد إمام المرسلين .

* الإخلاص هو لبُّ العبادة وقد جاء في الحديث القدسي: " أنا أغْنى الشُّركاء عن الشِّرك، مَنْ عَمِل عَمَلاً أشْرَكَ فِيهِ مَعي غيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ " [رواه مسلم]

وقد قسَّم العلماء الأعمال إلى ثلاثة أقسام : مَأْمُورات، ومَنْهيَّات، ومُبَاحَات . فأمَّا المَأْمُورَات فالإخلاص فيها بأن يقصد بعمله وجه الله، وإن كانت النيَّة لغير وجه

الله، فالعمل رياء مَحْض مَرْدُود، وأمَّا المَنْهيَّات فإنْ تركها بدون نيَّة لم يكن له أجر في تركها، وإن تركها ابتغاء وجه الله كان مأجوراً على تركها، وأما المُبَاحَات كالأكل والشرب والنوم وشبه ذلك، فإن فعلها بغير نيَّة لم يكن بها أَجْر، وإن فعلها بنيَّة وجه الله فله فيها أَجْر . (١)

من لطائف النظم القرآني :

* ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ انفكاك الشيء عن الشيء انفصاله بعد التحامه به، كالعظم إذا انفك من مفصله، والمعنى أن الكفار كانوا متشبثين بعقائدهم الباطلة تشبثاً قويّاً فاليهودي كان جازماً في يهوديته وكذا النصراني وعابد الوثن، فلما بُعِثَ محمد ﷺ : اضطربت الخواطر والأفكار وتشكك كل أحد في دينه ومذهبه ومقالته .

* ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ فيها إيجاز بالحذف فلم يذكر الله تعالى ما انفكوا عنه ليعم كل ضلال كانوا يعتقدونه ويمارسونه في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب .

* ﴿ يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ استعارة تصريحية حيث شبه الله تعالى تَنَزُّه الصحف عن الباطل بطهارتها عن الأنجاس وحذف المشبه وصرَّح بالمشبه به لتجسيم المعنى وتوضيحه .

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ..﴾ و ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ﴾ مقابلة بين الكفار وعذابهم في الجحيم ، والمؤمنين ونعيمهم في الجنة لتوضيح الفرق بين أصحاب الجنة وأصحاب السعير فمن لا يطمع في الجنة فعليه أن يخاف من النار وغضب الجبار .

***

(١) محمد علي الصابوني " صفوة التفاسير " ج ٣ ص ٥٨٩

بين يدي السورة :

واختُلف في كونها مَكِّيَّة أم مَدَنِيَّة فروي عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعطاء والضحاك: أنها مَكِّيَّة ، وقال قتادة ومقاتل: أنها مَدَنِيَّة ونرجِّح أنها مَكِّيَّة؛ لقوة إيقاع أسلوبها ونوع موضوعها فأسلوبها فيه قوة وشدة وتهديد لمناسبة غلظة قلوب كفار مكة وشدة عنادهم إزائهم المؤمنين ، وموضوعها يتضمن أهوال قيامة الساعة وذعر المكذبين بها ، وتحديث الأرض بما جرى عليها ، وحشر الناس جميعاً للحساب ، والجزاء العادل وكلها من الموضوعات التي غلبت على السور المَكِّيَّة .

فضل السورة :

قال رسول الله ﷺ " ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ رُبُعُ الْقُرْآنِ " [رواه أحمد والترمذي]

قال رجل للنبي ﷺ " أَقْرِئْنِي ، يَا رَسُولَ اللهِ ، سُورَةً جَامِعَةً . فَأَقْرَأَهُ : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ﴾ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهَا . قَالَ الرَّجُلُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ، لاَ أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَدًا . ثُم أَدْبَرَ الرَّجُلُ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ ، أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ "[رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حديث حسن]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

اللغويات :

﴿زُلْزِلَتِ﴾: تَحَرَّكَت واضْطَرَبَتْ ﴿أَثْقَالَهَا﴾ جمع ثِقْل ، وثِقْل الشَّيءِ : وَزْنُه، والثِّقل الحمل الثقيل ، وثقال الأرض : ما في جوفها ﴿تُحَدِّثُ﴾ تَرْوِي وتُخْبِر ﴿أَوْحَى﴾ إليه كلَّمَهَ بكلام يَخْفَى على غيره وكَتَبَ إليه وأَمَرَه وبَعَثَه ، وأَوْحَى اللهُ إليه أرسل وألْهَمَهُ ﴿يَصْدُرُ﴾ يرجع عن الشُّرْب ﴿أَشْتَاتًا﴾ جمع شَتِيت : مُتَفَرِّق ﴿لِّيُرَوْاْ﴾ مضارع مبنى للمجهول ، وماضيه المبنى للمعلوم " أراه " بمعنى أطْلَعَهُ ﴿مِثْقَالَ﴾ مِفْعَال من الثِّقْل ، ويُطْلَق على الشَّيء القليل الذي يحتمل الوزن ﴿ذَرَّةٍ﴾ تطلق على أصغر النمل وعلى الغبار الدقيق ، الذَّرة هي أصغر جزء من العنصر الكيميائي الذي يحتفظ بالخصائص الكيميائية لذلك العنصر .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ إذا حُرِّكت الأرض واضطربت أقوى ما يكون التحريك والاضطراب الذي تطيقه وتحتمله ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ عند الصيحة الأولى تخرج الأرض ما في بطنها من معادن منصهرة وحمم وبراكين ، وعند الصيحة الثانية تخرج الأرض ما في بطنها من موتى ﴿وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ وقال الإنسان في دهشة وخوف : ما للأرض تتزلزل ، وتخرج ما في بطنها . هل جاءت الساعة؟! ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ يوم القيامة يأمر الله تعالى الأرض أن تشهد بما فعله البشر فوق ظهرها خيراً كان أو شراً . عَن أبي هُرَيْرَة قال : " قرأ رسول اللّه ﷺ هذه الآية " ﴿يومئذ تُحَدِّثُ أخبارها﴾ قال : "أتَدرون ما أخبارُها ؟ " قالوا اللهّ ورسولُهُ أعلم. قال : " فإنَّ أخبارها : أنْ تَشْهَدَ على كُلِّ عَبْدٍ أو أمَةٍ بما عَمِلَ على ظَهرها ، تقول : عَمِلَ يومَ كذا ،كذا وكذا ، فهذا إخْبارُها " [رواه النسائي والتِّرْمِذِيّ وقال حَدِيث حسن صَحِيح] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ يوم القيامة يخرج الناس من قبورهم سراعاً متفرقين ، ليتبيَّنوا حسابهم وجزاءهم {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} من يعمل أي قدر من الخير وإن كان قليلاً يثب عليه في الآخرة قالﷺ : " لا تحقرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقَى أخاكَ بوَجْهٍ طليقٍ" [رواه مسلم] ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ومن يعمل أي قدر من الشر وإن كان قليلاً فسوف يجز به قال رسول الله ﷺ :

"إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ" [رواه أحمد]

فوائد وعظات :

* يوم القيامة تزلزل الأرض مرتين : الأولى : عند النفخة الأولى حيث تضطرب اضطراباً مهولاً وتقذف أثقالها من المعادن والصخور المنصهرة في باطنها كما تقذف المعادن النفيسة :الذهب والفضة اللذان كانا يتكالب عليهما الناس ويرتكبون في سبيلهما جرائم القتل والسرقة وقطع الأرحام يوم القيامة يصبحان بلا قيمة وتلقي بهما الأرض تحت أرجل الناس فيتركونه ولا يأخذون منه شيئاً ، قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ " تَقِيءُ الأَرْضُ أَفْلاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الأُسْطُوَانِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَتَلْتُ وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا" [صحيح مسلم] والزلزلة الثانية : عند النفخة الثانية حيث تقذف الأرض بالموتى لكي يحاسبوا على أعمالهم .

* اكتشف العلماء أن كل زلزال يُصْدِر ترددات صوتية قيمتها أقل من ٢٠ هرتز، وهذه الترددات لا يسمعها الإنسان ، إنما تسمعها بعض الحيوانات ، ولكن يوم القيامة قد نسمع صوتها إما لأنها ستكون أعلى من ٢٠ هرتز حيث تستطيع إذن الإنسان التقاطها أو أن الله جلَّ وعلا يسمع الإنسان هذه الأصوات ، وليست الأرض فقط هي التي ينطقها الله تعالى وتشهد على الإنسان إنما تشهد عليه جوارحه وحواسه ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤] فالحواس والجوارح كانت وديعة عند الإنسان في الدنيا ويوم القيامة يسترد الله تعالى وديعته وتشهد بما فعله بها الإنسان ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصّلت:٢٠، ٢١]

* ﴿وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ اختلف المفسرون حول كلمة الإنسان هنا هل تعني الكافر فقط أم لفظ عام يشمل كل البشر ؟ ونرجِّح أنها تعني الكُفَّار الذين كذَّبوا بيوم الدين اعتقاداً وقالوا : ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:٣٧] وعندما يبعثهم الله تعالى ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ وكذلك تشمل المسلم الفاجر الذي يصدق بيوم الدين باللسان ويكذِّب به بالسلوك

والأفعال فينهر اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ويسهو عن الصلاة ويرائي الناس ويمنع الخير عنهم .

وقول هذا الكافر والفاجر ﴿مَا لَهَا﴾ ليس بسؤال بل هو للتعجب من وقوع ما كان يكذِّب به اعتقاداً قلبيّاً أو سلوكاً عمليّاً . أما المؤمن فيقول عند البعث والحساب : ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون﴾ [يس : ٥٢]

* ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ هاتان الآيتان قد جمعتا أسمى وأحكم ألوان الترغيب والترهيب ، ولذا قال كعب الأحبار : لقد أنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ آيتين ، أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ، ثمَّ قرأ هاتين الآيتين .

وعَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، عَمِّ الْفَرَزْدَقِ. أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ : {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} ، قَالَ : حَسْبِي ، لاَ أُبَالِي أَنْ لاَ أَسْمَعَ غَيْرَهَا." [رواه أحمد والنسائي]

من لطائف النظم القرآني :

* ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ قال تعالى "إذا" ولم يقل "إنْ" وذلك لأن " إنْ " تفيد جواز وقوع الفعل أما " إذا " فتفيد القطع بوقوعه ولمَّا كانت زلزلة الأرض يوم القيامة مقطوع بوقوعها فقد قال تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ وأكد ذلك بالمفعول المطلق ﴿زِلْزَالَهَا﴾ للتهويل والتفظيع .

* ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ إيجاز بحذف المفعول الأول إذ المعنى : تحدث الخَلْقَ أخْبَارَهَا لأن المقصود ذكر تحديثها الإخبار لا ذكر الخَلْق .

* المقابلة بين ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وبين ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ لتوضيح عدم الاستهانة بمُحَقَّرَات المعروف وَمُحَقَّرَات الذُّنُوب .
* اتفاق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿زِلْزَالَهَا .. أَثْقَالَهَا .. مَا لَهَا .. أَخْبَارَهَا .. أَوْحَىٰ لَهَا﴾ مما يعطي جرساً موسيقيّاً يقرع الأذن ، ويفزع النفس من أهوال يوم القيامة .

***

بين يدي السورة :

اخْتُلِفَ حول السورة مَكِّيَّة أم مَدَنِيَّة ؟ قال ابن مسعود وجابر بن زيد وعطاء والحسن وعكرمة : هي مَكِّيَّة ، وقال أنس بن مالك وابن عباس وقتادة : هي مَدَنِيَّة. ونُرجِّح أنها مَدَنِيَّة لأن السورة تحدثت عن القتال أو الحج ، كما سنبين، وكليهما لم يشرع إلا في المدينة ، ويشهد لمدنيتها حديث على بن أبي طالب لابن عباس بشأنها والذي سنورده لاحقاً .

وإيقاع السورة سريع متتابع متلاحق كأنه عَدْو الخيول أو هَرْوَلَة الحجيج التي أقسم الله تعالى بها في مُسْتَهل السورة لنصل إلى جواب القسم الذي يقرر جحود الإنسان شكر ربه على جزيل نعمه ، ثم يقرر الحق جلَّ وعلا حقيقة البعث والنشور والحساب ردّاً على جحود الإنسان الذي ينكر البعث والحساب عقيدة قلبية أو تطبيقاً سلوكيّاً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

اللغويات :

﴿ٱلْعَادِيَاتِ﴾ جمع عَادِيَة : اسم فاعل من العدو ، وهو المشي السريع ، والعَادِيَةُ : الخيلُ المسرعة ﴿ضَبْحاً﴾ الضَّبْح : صَوْت أنْفَاس الخيْل عِنْد العَدْو، وصَوْت الإنسان يُشْبه ضَبْح الثَّعْلَب ﴿فَٱلمُورِيَاتِ﴾ جمع مُورِيَة ، اسم فاعل من الإيراء ،

وهو إخْرَاج النَّار ﴿قَدْحاً﴾ القَدْح : ضَرْب شَيء لكي يَخْرُج من بينهما شَرَرُ النَّار ﴿فَٱلْمُغِيرَاتِ﴾ جمع مُغيرة وهي اسم فاعل من أَغَارَ ، أغَارَ الفَرَسُ : أسْرَعَ ، أغَارَ الرَّجُلُ : عَجَّلَ فِي الْمَشْيِ ﴿صُبْحاً﴾ صبَاحاً ﴿فَأَثَرْنَ﴾ أَثَار الشَّيءَ : حَرَّكَه ، وهَيَّجَه ﴿نَقْعاً﴾ النَّقْع : الغُبَار ﴿لَكَنُودٌ﴾ الكُنُود : مَنْعُ الحقِّ والخير ، والكَنُودُ : الذي يمنع ما عليه ، ومن يَذكُرُ المصيبات وينسى النِّعم ، والبَخيلُ ، والكَفُور ﴿لَشَهِيدٌ﴾ الشَّهيد : صيغة مُبَالَغَة من شَاهد ﴿بُعْثِرَ﴾ بَعْثَرَ الشيءَ : فَرَّقَهُ لينظُرَهُ ويُفَتِّشَه ، وأُثِيرَ وأُخْرِج ﴿حَصِّلَ﴾ الشيءَ والأَمرَ : خلَّصَهُ وميَّزَه من غيره ، وجَمَعَهُ ، وحَصَّلَ الكلامَ : رَدَّه إلى أصْله ﴿لَخَبِيرٌ﴾ الخَبِيرُ : اسم من أَسماء الله عز وجَلَّ : العالِمُ بما كان وما يكون ، والخَبِيرُ ذو الخِبرة الذي يَخْبُرُ الشيءَ بعلْمِه .

المعنى الإجمالي للآيات :

اختلف المفسرون حول القَسَم في مفتتح السورة على قولين : الأول روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والضحاك وهو أن الله تعالى أقسم بخيل المجاهدين الغازية في سبيل الله ، وعلى ذلك يكون تفسير الآيات على النحو التالي:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أقسم الله تعالى بخيل المجاهدين التي يُسْمَع صوتُ أنفاسها من فرط سرعتها ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ تُخْرِجَ شَرَرَ النار من الأرض بوقْع حوافرها ﴿فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ وتهجم على العدو قبل طلوع الشمس﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ وتحرِّك الغبار الكثيف في أرض المعركة ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ وتقتحم جيش الأعداء وتصيب قلبه فيدب الفزع فيه وتضطرب الصفوف ويجيء نصر الله .

والقول الثاني : ويروى عن عليٍّ بن أبي طالب وابن مسعود وإبراهيمُ ومجاهد وعُبيد بن عمير وغيرهم وهو أن القَسَم بإبل الحجيج وليس خيل المجاهدين ، وقبل أن نفسر الآيات وفق هذا القول نعرض المناقشة التي دارت بين قطبي القولين : ابن عباس ، وعلى بن أبي طالب حول تفسير القَسَم . عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، حَدَّثَهُ ، قَالَ: " بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحِجْرِ جَالِسًا أَتَانِي رَجُلٌ فَسَأَلَنِي عَنِ ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ، فَقُلْتُ : الْخَيْلُ حِينَ تُغِيرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى اللَّيْلِ يَصْنَعُونَ طَعَامَهُمْ وَيُورُونَ نَارَهُمْ، فَانْتَقَلَ عَنِّي فَذَهَبَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ تَحْتَ سِقَايَةِ زَمْزَمَ ، فَسَأَلَهُ عَنِ ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ فَقَالَ : سَأَلْتَ عَنْهَا أَحَدًا قَبْلِي ؟ قَالَ : فَقَالَ : نَعَمْ ، سَأَلْتُ عَنْهَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، فَقَالَ : الْخَيْلُ حِينَ تُغِيرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَ : اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى رَأْسِهِ قَالَ : تُفْتِي النَّاسَ بِمَا لا عِلْمَ لَكَ بِهِ ؟

وَاللَّه ، إِنْ كَانَتْ لأَوَّلَ غَزْوَة فِي الإِسْلامِ لَبَدْرٌ وَمَا كَانَ مَعَنَا إلا فَرَسَانِ ، فَرَسٌ لِلزُّبَيْرِ وَفَرَسٌ لِلْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ ، فَكَيْفَ تَكُونُ ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾؟ إِنَّمَا ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ مِنْ عَرَفَةَ إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ وَمِنَ الْمُزْدَلِفَةِ إِلَى مِنًى ، فَاوْرُوا النِّيرَانَ ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ ، مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ إِلَى مِنًى ، فَذَلِكَ جَمْعٌ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ ، فَهِيَ نَقْعُ الأَرْضِ حِينَ تَطَأُهَا أَخْفَافُهَا وَحَوَافِرُهَا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَنَزَعْتُ عَنْ قَوْلِي وَرَجَعْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ عَلِيٌّ ." (١)

وعلى هذا يكون تفسير القَسَم حسب قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه على هذا النحو : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أقسم الله تعالى بإبل الحُجَّاج التي تعدو من عَرَفَة إلى المُزْدَلِفَة ومن المُزْدَلِفَة إلى مِنًى ، واستعير الضَّبْح لصوت الإبل من شدة العدو قويت الأصوات المتردّدة في حناجرها حتى أشبهت ضَبْح الخيل ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ هي النَّار التي يشعلها الحُجَّاج بالمُزْدَلِفَة للإضاءة والتدفئة وطهي الطعام ونحو ذلك ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ عدو إبل الحجاج صبيحة يوم النحر مسرعة من المُزْدَلِفَة إلى مِنًى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ الغبار الذي تثيره حركة إبل الحُجَّاج الراكبين أو أقدام الحُجَّاج المشاة في طريقهم من المُزْدَلِفَة إلى مِنًى ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ توسط إبل الحجاج أرض المُزْدَلِفَة التي تسمى الجمع لاجتماع الحجَّاج بها . والقولان مناسبان لجواب القسم ﴿إِنَّ ٱلإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ فالإنسان الكنود يبخل بماله ونفسه على أداء فريضة الجهاد في سبيل الله ، مع قدرته عليه ، أو أداء فريضة الحج ، مع استطاعته ، أو يبخل بنعم ربه التي لا تحصى على خلق الله تعالى المحتاجين لها ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ وهذا الإنسان الجاحد نعمة ربه يفاخر بها في مواضع الفخر في الدنيا ويعترف بجحوده لها في الآخرة ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ والذي يدفع الكَنود إلى تفريطه في حق الله عليه نحو ما أعطاه من نعم هو حبه الشديد للنعم التي ابتلاه الله بها وبخله الشديد بها على أصحاب الحقوق عليه ﴿أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أفلا يعلم الإنسان الكنود أنه سيموت ويترك ما عنده من نعم وسوف يبعث لحاسب عليها؟﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ إن ما كان يستره هذا الكنود في قلبه سوف يفضح ويكشف ويجمع ، ويميز صدقه وكذبه ، إخلاصه ونفاقه ، خيره وشره ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ إن الله تعالى الذي خلق الإنسان يعلم ما توسوس به نفسه وما يلفظ به من قول وما يقوم به من فعل وسوف

(١) رواه الحاكم في مستدركه وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

يحاسبه على كل هذا يوم القيامة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزَّلزلة:٧ ، ٨]

فوائد وعظات :

* أقسم الله تعالى بخيل المجاهدين تعظيماً للجهاد وترغيباً للمسلمين في القيام به، وسمى من يبخل بماله ونفسه عن الجهاد بالكنود تنفيراً من القعود عنه وتحذيراً من سوء عاقبة القاعدين ، والجهاد في سبيل الله من أفضل القربات ، ومن أعظم الطاعات ، وما ذاك إلا لما يترتب عليه من نصر المؤمنين وإعلاء كلمة الدين ، وقمع المعتدين والمفسدين ، وتسهيل انتشار الدعوة الإسلامية بين العالمين، وإخراج العباد من الظلمات إلى النور، ونشر محاسن الإسلام وأحكامه العادلة بين الخلق أجمعين، وقد ورد في فضله وفضل المجاهدين من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يحفز الهمم العالية، ويحرك كوامن النفوس إلى المشاركة في هذا السبيل، وهو فرض كفاية على المسلمين إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، وقد يكون في بعض الأحيان من الفرائض العينيَّة التي لا يجوز للمسلم التخلف عنها إلا بعذر شرعي، كما لو استنفره الإمام أو حصر بلده العدو أو كان حاضراً بين الصفين. (١)

* وكذلك أقسم الله تعالى بإبل الحجاج تعظيماً لفريضة الحج وترغيباً في أدائها لمن استطاع إليه سبيلاً ، وسمى من امتلك أسبابه وتقاعس أن أدائه بالكنود؛ فقد بخل بماله ووقته وجهده وحرم نفسه من تحصيل أجره وفضله وورد في فضل الحج أحاديث كثيرة منها : قوله ﷺ " مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" [متفق عليه] وقوله ﷺ :" وَالْحَجّ الْمَبْرُور لَيْسَ لَهُ جَزَاء إلا الْجَنَّة" [متفق عليه] والحج المبرور قد يكون أفضل من الجهاد في سبيل الله ، في وقت السلم والأمن وانعدام دواعيه ، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمنينَ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّه نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ أَفَلا نُجَاهِدُ؟ قَالَ " لاَ، لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ " [رواه البخاري].

* السورة تحذِّر من الطمع والبخل وجحود نعمة الله تعالى ، والبخيل يظن أنه يبخل بنعم الله على الناس وهو في الحقيقة يبخل على نفسه بثواب الله تعالى وأجره فالله تعالى سوف يرزق المحتاجين من فضله فهو الغني المغني ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد:٣٨] والبخيل لو أيقن بثواب الله للمتصدق وعقوبة الله

(١) عبد العزيز بن باز " فضل الجهاد والمجاهدين " الموقع الرسمي للشيخ رحمه الله .

تعالى للممسك ما بخل على الناس ولا استغنى عن ثواب الله ولا كذب بلقائه ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:٨-١٠] والبخيل يحرم نفسه من فضل الله وثوابه يقول النبي الكريم ﷺ : " قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ " [متفق عليه] ويعرِّض نفسه لمَحْق الله نعمته عليه وعقابه له يقول ﷺ: " مَا مِنْ يوم يُصبِحُ فيه العبادُ؛ إلا مَلَكانِ يَنْزِلان، يقول أحدُهما :اللهم أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً " [متفق عليه]

من لطائف النظم القرآني :

* لماذا قال تعالى ﴿بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ ولم يقل: بُعْثِر مَن في القبور ، مع أن ما لغير العاقل ومن للعاقل ؟ وما هنا إما أن يكون المقصود بها الإنسان الكنود وليس الصالحين من عباد الله فهو المخاطب بقوله تعالى ﴿أَفَلاَ يَعْلَمُ﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ وخصَّهم الله تعالى لكونهم ينكرون ، اعتقاداً قلبيّاً أو تطبيقاً عمليّاً ، البعث والحساب والكنود لمَّا لم يحسن استخدام ما أهَّله الله به تعالى لتحمل أمانته والقيام بتكاليفه أصبح كالحيوانات غير العاقلة وغير المُكلَّفة بل أضل منها سبيلاً يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]

أو المقصود بما في القبور الأجساد البالية والعظام النخرة .

* ﴿إِنَّ ٱلإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أسلوب خبري مؤكد بمؤكدين : إنَّ ، واللام للجزم بحقيقة ثابتة لا شك فيها وهي أن الإنسان بعيداً عن شرع الله حتماً سيكون كنوداً مانعاً للحق والخير .

* ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أسلوب خبري مؤكد بمؤكدين : إنَّ واللام لبيان حب الكنود للمال والنعم لنفسه وبخله بها على غيره .

* الجناس الناقص الذي يعطي جرساً موسيقيّاً بين ﴿ضَبْحاً﴾ و ﴿صُبْحاً﴾ ، وبين ﴿لَشَهِيدٌ﴾ و ﴿ لَشَدِيدٌ﴾ .

* ﴿أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أسلوب استفهام غرضه التعجب من حال الكنود واستنكار جحود نعم ربه كأنه لن يموت ولن يبعث ولن يحاسب .

* اتفاق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿ضَبْحًا .. قَدْحًا .. صُبْحًا﴾ ، ﴿نَقْعًا .. جَمْعًا﴾ ، ﴿لَكَنُودٌ .. لَشَهِيدٌ .. لَشَدِيدٌ﴾ ، ﴿الْقُبُورِ .. الصُّدُورِ .. لَخَبِيرٌ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

بين يدي السورة :

السّورة مكيّة بالاتفاق اشتملت السورة على أقوى الأساليب وأبلغها، في التحذير من أهوال يوم القيامة ؛ فإيقاع ألفاظها وموسيقا تراكيبها وفخامة حروفها أشبه ما تكون بقرع الطبول إيذاناً بوقوع أمر عظيم مما يهز القلوب وينبِّه العقول لمعرفة هذا الأمر العظيم الذي يصير الناس فيه مثل الفراش المنتشر المضطرب المتدافع وتصير الجبال الراسخات كالصوف المتناثر المتطاير ، ثم يفصل بين الناس ، حسب اعتقادهم وأعمالهم ، لا بحسب ما كانوا عليه في الدنيا : ففريق في النعيم ، وفريق في الجحيم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

اللغويات :

﴿الْقَارِعَةُ﴾ اسم فاعل من القَرْع ، وهو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد ، القارعة : القيامةُ ، القارعة : المصيبةُ ﴿الْمَبْثُوثِ﴾ البَثُّ أشَدُّ الحزن الذي لا يَصْبر عليه صَاحبه ، المرض الشديد ، والمبثوث : المنتشر المتفرق . ﴿كَالْعِهْنِ﴾ الصُّوف المصبوغ ألوانًا ﴿الْمَنْفُوشِ﴾ نَفَشَ القطنَ أو الصُّوفَ ونحوَهما نَفْشًا : فَرَّقه بأَصابعه أو بآلة حتى ينتشر بعد تلبُّد ﴿هَاوِيَةٌ﴾ الهَاوِيَةُ جهنَّمُ .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿الْقَارِعَةُ﴾ القيامة سميت بذلك لأنها تقرع قلوب وعقول الناس بأهوالها وما يجري فيها ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ أي شيء عجيب تكون هذه القارعة ؟! ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ وأي شيء أعلمك ما القارعة ؟ وما زمانها ؟ وما يجري فيها من أهوال؟ ومن تضرب وتفزع ؟ ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ إنها القيامة التي تقوم في آخر الزمان على شرار الناس ولا يطيقون أهوالها ويصبحون يومها مثل الفراش الكثير المتدافع المضطرب لا يعرفون لهم وجهة فيتهافتون على هلاكهم ومصارعهم ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ في هذا اليوم تنسف الجبال الراسخات وتتطاير أجزاؤها كما يتناثر الصوف الملون في الجو في يوم عاصف ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ وبعد هلاك الناس تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ويبعث الله تعالى الأولين والآخرين ليحاسبوا على أعمالهم وفق شرع الله الذين أرسل به رسله فمن رجحت حسناته على سيئاته نال رضا الله ونعيمه ويعيش عيشة هنيئة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ وأما من قلَّت حسناتُه وكثُرت سيئاتُه بسبب سوء أعماله فمأواه جهنّمُ يُهوي فيها إلى أسفل الدَرَكات ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ وما أعلمك ما الهاوية ؟ إنها نار لا عهد لأحد بشدة حرارتها ولا طاقة لبشر بتحملها .

فوائد وعظات :

* سميت القيامة بالقارعة لأنها تضرب نظام الكون فيتصدع ويتهاوى وتصدر عنه أصوات لا طاقة لمخلوق بتحمل سماعها؛ فهي التي تقرع الناس بالأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالدك والنسف، والنجوم والكواكب بالطمس والانكدار.

من لطائف النظم القرآني :

* إن اسم السورة دال على ما اشتملت عليه فالسورة شديدة الإيقاع مهولة الوَقْع فتقرع الآذان فافتتحت بلفظ القارعة ، المؤذن بأمر عظيم ، ثم ثنَّت بالاستفهام المستعمل في التهويل ، ثم أعادت اللفظ بذاته بدون إضمار له زيادة في تعظيم أمره، ثم تأتي إجابة الاستفهام عنها بما يكون فيها ، لا بماهيتها ، فتشبِّه الناس حينئذ

تشبيهاً يبعث على الفزع والخوف ، وتصف الجبال بصفات تخلع القلوب، ثم تفاجئ المكذبين بها بحسابهم بكل دقة على ما فعلوه ذكروه أو نسوه ، وتصنِّفهم تصنيفاً لم يعهدوه ، وتختم بعقاب شديد لمن يكذب بكل هذا عقاباً لن يطيقوه .

* ﴿مَا القارعة﴾ استفهام عن حقيقتها ، والمقصود به التهويل من أمرها ، والتفظيع من حالها وتكراره لزيادة التهويل .

* ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن، لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك !

* ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ تشبيه الناس يوم القيامة بالفراش المبثوث يوحي بالكثرة والانتشار، والفزع والاضطراب ، والضعف الهوان .

* ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ تشبيه الجبال بالعهن المنفوش يوحي بضعف الإنسان وشدة هوانه وحتمية هلاكه أمام أهوال القيامة .

* المقابلة في أواخر السورة بين نعيم المؤمنين ، وجحيم الكافرين والعصاة يوضح الفرق الحالين فإذا لم ترغب ، أيها العاصي ، في نعيم الآخرة فخف من جحيمها .

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ مجاز عن رضا المؤمن بعيشته في النعيم بإسناد الرضا للعيشة نفسها لبيان تمام النعيم برضا العيشة عمن يتنعم بها وليست فقط مُسخَّرة لرضائه .

* ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ تشبيه أم من خفَّت موازينه بجهنم لبيان أن ملجأه ومستقره هو جهنم لأن الأصل في الأم الملجأ والاستقرار .

* توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿رَاضِيَةٍ .. هَاوِيَةٌ .. مَا هِيَهْ .. حَامِيَةٌ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

بين يدي السورة :

السّورة مكيَّة ، والسورة ذات إيقاع رهيب وكأنما هي صوت نذير يصيح : أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون . أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر استيقظوا وانظروا ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر من جحيم يصلونه ثم يلقي بالإيقاع الأخير، الذي يدع المخمور يفيق، والغافل يتنبه، ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ لتسألن عنه من أين نلتموه؟ وفيم أنفقتموه؟ أمن طاعة وفي طاعة؟ أم من معصية وفي معصية؟ هل شكرتم؟ هل أديتم؟ هل شاركتم؟ هل استأثرتم؟ ﴿لَتُسْأَلُنَّ﴾ عما تتكاثرون به وتتفاخرون ؛ فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم ولكن وراءه ما وراءه من هم ثقيل! (١)

سبب النزول :

روي في سبب نزول ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ قول ابن عباس : "إن بني عبد مناف وبني سهم من قريش تفاخروا فتعادُّوا السادة والأشراف من أيّهم أكثر عددًا فكثَر بنُو عبد مناف بني سهم، ثم قالوا نعُدُّ موتانا حتى زاروا القبور فعدُّوا القبور فكثَرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا أكثر عددًا في الجاهلية . " (٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن " ج ٨ ص ٨٨ .
(٢) ذكره الواحدي والبغوي عن مقاتل والكلبي والقرطبي .

اللغويات :

﴿أَلْهَاكُمُ﴾ شَغَلَكُم عما هو نافع ﴿التَّكَاثُرُ﴾ الإكثار من المرغوب فيه كالمال والأولاد والجاه ﴿الْيَقِينِ﴾ العلم الذي لا شك معه ، وعلم يقين ليس فيه شك . ﴿الْجَحِيمَ﴾ النار الشديدة التَّأَجُّج ، اسم من أسماء جهنم ﴿النَّعِيمِ﴾ ما استُمْتِعَ به ، وطِيب العَيْش ، وحُسْن الحال .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ شغلكم ، أيها الناس ، جمع المال وكثرته والتباهي بالأولاد والأحساب والأنساب عن عبادة الله تعالى وطاعته وبقيتم على هذه الحال حتى جاءكم الموت فجأة وحُمِلْتُم إلى قبوركم ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وسوف تعلمون عاقبة انشغالكم بالنِّعم عن المُنْعم وبالدنيا عن الآخرة ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ لو كنتم مؤمنين حقاً بالله واليوم الآخر لما انشغلتم عن الواجبات والطاعات بالتكاثر والتباهي والمعاصي والملاهي ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أقسم لكم لسوف ترون جهنم حقاً ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أقسم لترونها بأعينكم بلا شك ولا ريب ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ثم أقسم وأؤكد أنكم ستحاسبون على ألوان النعيم الذي أُترفتم فيه واستمتعتم به، ولم تؤدوا فيه حق لله .

فوائد وعظات :

* ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ نهى النبي ﷺ عن التهالك على حطام الدنيا في أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم عن قَتَادَةُ عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي قَالَ وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ " .

إنَّ العمل وحده هو الذي يبقى مع الإنسان في قبره وفي آخرته ومع ذلك فإن الإنسان ينشغل طول حياته بالإكثار من المال والأولاد عن العمل الصالح رغم أنهما لن يغنيا عنه من الله شيئاً ويتركانه في قبره وحيداً هو وعمله .

قال رسول الله ﷺ " يَتْبَعُ المَيتَ ثَلاَثَةٌ : أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ ، فَيَرجِعُ اثنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ : يَرجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ ، وَيَبقَى عَمَلُهُ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ]

والإنسان لا يحتاج إلا إلى القليل من نعيم الدنيا ، مع الإيمان والعمل الصالح، حتى يكون سعيداً في الدارين يقول النبي ﷺ : " مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً في سربِهِ، مُعَافَىً في جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا"

[رواه الترمذي وقال : حديث حسن]

* إنَّ مطلق التكاثر ليس بمذموم ، بل التكاثر في العلم والطاعة والأخلاق الحميدة المحمود وهو أصل الخيرات ، فالألف واللام في التكاثر ليسا للاستغراق، بل للمعهود السابق، وهو التكاثر في الدنيا ولذاتها وعلائقها، فإنه هو الذي يمنع عن طاعة الله تعالى وعبوديته، ولما كان ذلك مقرراً في العقول ومتفقاً عليه في الأديان، لا جرم حسن إدخال حرف التعريف عليه. (١)

* ما الفرق بين : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ؟

إن مراتب العلم ثلاثة : علم اليقين وهو ما كان ناتجاً عن الأدلة والبراهين ، وعين اليقين : وهو ما كان عن مشاهدة وانكشاف ، وحق اليقين : وهو ما كان عن ملامسة ومخالطة .

ومثال ذلك أن تعلم بالأدلة أن الكعبة موجودة ، فذلك علم اليقين ، فإذا رأيتها بعينيك فذلك عين اليقين . فإذا طُفْت حولها سبعاً وقبلت الحجر الأسود ، وصليت في حجر إسماعيل فذلك حق اليقين . (٢)

* ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال بعض المفسرين السؤال عن النعيم يكون للكافر فحسب ، والحقيقة أن ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكلٍّ من اتصف بإلهاء التكاثر له فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتَّصفين بذلك ، والصحابة فهموا التعميم والأحاديث صريحة في التعميم والذي أنزل عليه القرآن أقرَّهم على فهم العموم ، وأيضاً فالواقع يشهد بعدم اختصاصه وأنَّ الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر وخطاب القرآن عام لمن بلغه . (٣)

---

(١) فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ص ٤٨٢٦

(٢) تفسير الشيخ الشعراوي .

(٣) ابن القيم " التفسير القيم " ج٢ ص٢٢٩، ٢٣٠

من لطائف النظم القرآني :

* لم يقل الله تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ عن كذا وإنما لم يذكره ، لأن المطلق أبلغ في الذم لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله الموضع، أي: ألهاكم التكاثر عن ذكر الله وعن الواجبات والمندوبات في المعرفة والطاعة والتفكر والتدبر . (١)

* كُرِّر لفظ ﴿كلاَّ﴾ ثلاث مرات في هذه السورة ؛ لتأكيد الزجر والردع عن كل ما يشغل الإنسان عن وجوه الخير والبر .

* ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ذكر الله تعالى زيارة المقابر دون الموت لبيان أنهم غير مُخَلَّدين في القبور كما أنهم غير مُخَلَّدين في الدنيا إنما فقط زائرين لهما وأن الخلود يكون في دار القرار في الجنة أو النار .

وجاء الفعل ﴿زُرْتُمُ﴾ في صيغة الماضي للتأكيد على حتمية الموت لكل مخلوق مهما بلغ جاهه وسلطانه وكثر ماله وولده .

* ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ التكرار للتهديد والإنذار .

﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين﴾ جواب " لو " محذوف لقصد التهويل . وكذلك عدم ذكر مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ .

* توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿التَّكَاثُرُ .. الْمَقَابِرَ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

(١) فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ج ص ج ١٧ ص ١٨٧

بين يدي السورة :

هي مَكِّيَّة في قول جمهور المفسرين ، ورغم قصر آياتها فإنها ، كما قال الإمام الشافعي ، لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم . وذلك لأنها تمثل منهج حياة وقارب نجاة للإنسان من الخسران حيث لا نجاة للإنسان في الدارين إلا بالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

فضل السورة :

ذكر الطبراني عن عبد الله بن حصن قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا، لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر "سورة العصر" إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

اللغويات :

﴿الْعَصْرِ﴾ : الدَّهْر ، والوقت في آخر النهار إلى احمرار الشَّمْس ، والملجأُ والمَنْجاةُ ﴿خُسْرٍ﴾ خَسِرَ فلانٌ : هَلَكَ ، أو ضلَّ ، وخَسِرَ الشيءَ : نَقَصَهُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ الحَقُّ : اسمٌ من أسمائه تعالى ، الحَقُّ : الثابت بلا شَكٍّ ، والحَقُّ : النّصيب الواجب للفرد أو الجماعة ، وحقوق الله : ما يجب علينا لَهُ تعالى . ﴿بِالصَّبْرِ﴾ الصَّبْرُ : التجلُّد وحسن الاحتمال ، والصَّبْرُ على المكروه : احتماله دون جَزَع .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿وَالْعَصْرِ﴾ يقسم الله تعالى بالدهر ، الزمان قلَّ أو كثر ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إن الإنسان سوف يخسر دنياه وآخرته لا محالة ﴿إِلا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إذا لم يؤمن بالله تعالى ويعمل الصالحات ويوصى بعضه بعضاً بحقوق الله تعالى ، وحقوق العباد ، ويتحمل كل تعب ، ومكروه في سبيل ذلك كله .

فوائد وعظات :

* إن المتأمل في كلمة إنسان في القرآن يجد أن الله تعالى قد قرنها دائماً بصفات الذَّم فالإنسان في القرآن : ظَلُومٌ جَهُول ، يَئُوس قَنُوطٌ ، خَصِيمٌ مُّبِين ، قَتُور ، هَلُوع، جَزُوع ، عَجُول ، كَنُود . فالإنسان بلا إيمان ناقص ، ومثل هذا الإنسان حريص ، سفَّاك ، وبخيل ومُقَتِّر ، كافر، وأضلَّ من الحيوان .

ولا سبيل له للتخلص من هذه العيوب إلا بالإيمان بالله تعالى واتِّباع شرعه .

فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك ويعطيه إياه وليس له ذلك من نفسه بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم والظلم المضاد للعدل وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له وجعله مريداً للآخرة مؤثراً لها على التكاثر بالدنيا فان أعطاه ذلك وإلا فهو ملته بالتكاثر في الدنيا . (١)

فلمَّا كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدى ودين الحق وبتكميله لغيره في هذين الأمرين كما قال تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * ﴿إِلا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان وقوته العملية بالعمل الصالح وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه فالحق هو الإيمان والعمل ولا يتمَّان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما كان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران المبين وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره ، واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد

(١) ابن قيِّم الجوزيَّة " التفسير القيم " ج ٢ ص ٢٣١

والموصل لهم إلى سبيل الرشاد فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ولا تستثمر إلا من شجراته . (١)

* دَأَب الناس على سب الدهر وعيبه وتحميله ما يقع عليهم من مصايب .

وقد جاء في الحديث الصحيح قول الله تعالى : " يُؤذيني ابنُ آدمَ ، يسبُّ الدَّهرَ وأنا الدَّهرُ ، بيدي الأمرُ ، أُقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ " [متفق عليه]

وذكر ابن القيم أن سبَّ الدهر فيه ثلاث مفاسد :

أحدها: سبَّهُ ممن ليس أهلاً للسب ، فإن الدهر خَلْق مُسَخَّر من خَلْق الله مُنْقَاد لأمره مُتَذَلِّل لتسخيره فسابُّه أولى بالذَّم والسَّب منه .

الثانية : أن سبَّه متضمن للشرك ، فإنه سبه لظنه أنه يضر وينفع .

الثالثة : أن السب منهم وقع على من فعل هذه الأفعال .

* قال بعض السلف : تعلَّمت معنى سورة العصر من بائع الثلج كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله ، ارحموا من يذوب رأس ماله فقلت : هذا معنى ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذن هو خاسر .

* ﴿إِلا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ لم يخصص الحق قوماً ليكونوا الناهين ، وقوماً آخرين ليكونوا المنهيين ، بل كل واحد عرضة أن يكون ناهياً إن اتجهت خواطر صاحبه إلى الحرام ، وعرضة أيضاً لأن يكون مَنْهِيّاً إن كانت نفسه تتجه إلى الحرام ، وبذلك نتبادل النهي والتناهي ، لذا استخدم الحق جل وعلا صيغة تفاعل " تواصوا " التي تدل على المشاركة ولم يستخدم صيغتي : فعَّل ، أو أفعل (٢) وكررها مرتين لإبراز كمال العناية .

من لطائف النظم القرآني :

* ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ إشعار بأن الإنسان كأنه مغمور بالخسر ، وأن هذا الخسران قد أحاط به من كل جانب بسب فتنة الدنيا وغواية الشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، والهوى ، وتنكير لفظ ﴿خُسْرٍ﴾ للتهويل . أي : لفي خسر عظيم .

(١) ابن قيِّم الجوزيَّة " التفسير القيم " ج ١ ص ٥
(٢) راجع تفسير الشيخ الشعراوي ص ٢٣٠٣ .

* ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إيجاز بالقِصَر فالتواصي بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل ، والتواصي بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما يجب ، وفي اجتنابها ما يحرَّم إذ الإقدام على المكروه ، والإحجام عن المراد كلاهما شاق شديد عليها .

* قال بعض العلماء : اشتملت هذه السورة الكريمة على الوعيد الشديد ، وذلك لأنه تعالى حكم بالخسارة على جميع الناس ، إلا من كان متصفاً بهذه الأشياء الأربعة ، وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، فدلَّ ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور .

* وفي هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام . وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة . إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار . وتصف الأمة المسلمة : حقيقتها ووظيفتها . في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة ، وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله . (١)

* توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿وَالْعَصْرِ .. خُسْرٍ .. بِالصَّبْرِ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٨ ص ٨٩